البحيرة

نظم لامرتين هذه القطعة الخالدة فى بحيرة بورجيه من سفوا وقد وفد على اكس عام ١٨١٧ ينتظر قدوم جوليا اليها كما مر بك فى سياق القصة . وجوليا يومئذ كانت تكابد غصص الموت على سرير المرض فلم تلب نداءه ولم تستطع لقاءه . فزفر لامرتين هذه الزفرة وأرسل هذه العبرة من صدر مكروب وعين قريحة ، ثم عاد الى (ميلى) شارد اللب مضطرم الجوانح . وهذه هى :

أهكذا قضى الله أن نمخر فى عباب الحياة مدفوعين فى ظلام الأبد من شاطىء إلى شاطئ ، دون أن نملك الرجوع إلى ملجأ ، أو الرسوَّ ذات يوم على مرفأ ؟

* * *

انظرى أيتها البحيرة ، ها هو ذا العام قد كاد يشارف تمامه ، وأنا وحدى بجانب أمواجك الحبيبة أرتقب عبثاً عودة جوليا إليها ، جالساً فوق الصخرة التى كنت تَرَينها جالسة عليها !

* * *

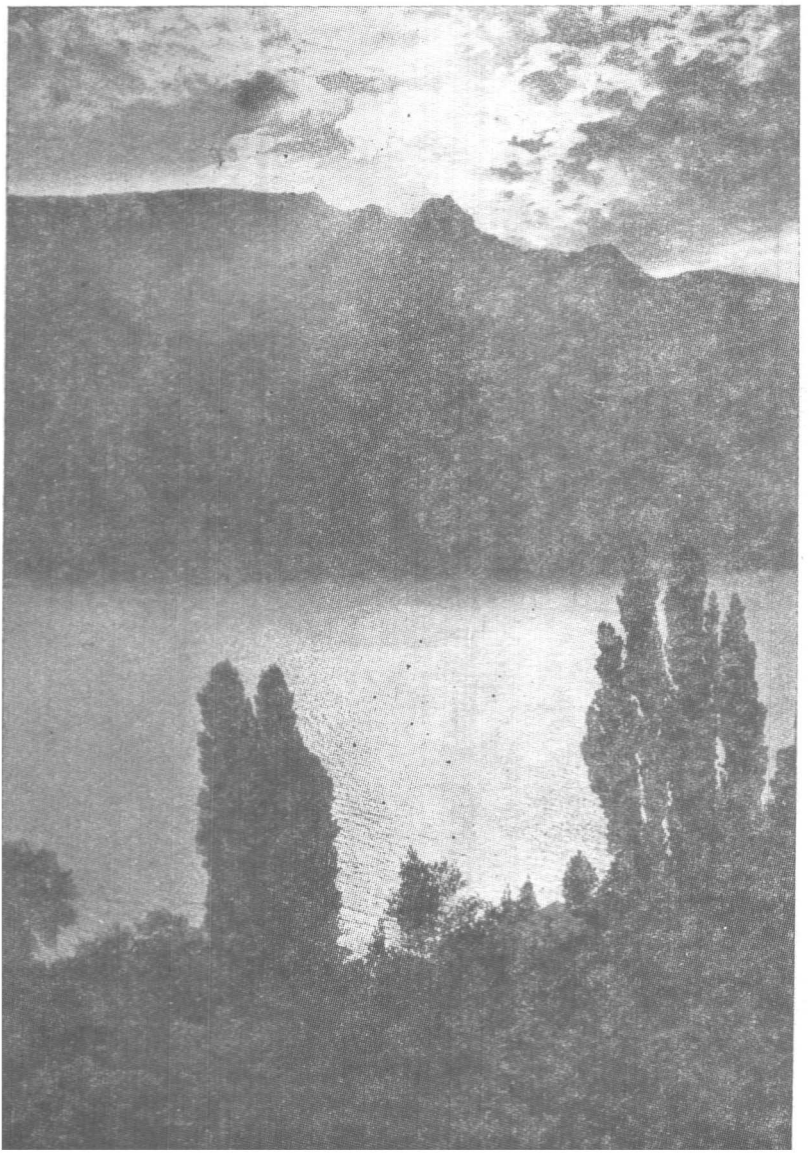

بحيرة بورجيه

كذلك بالأمس كنت تهدرين فوق هذه الصخور المعلقة ، وتتكسر أواذيّك[١] على جوانبها الممزقة ، وتقذف رياحك الزبدَ على قدميها المعبودتين .

* * *

أتذكرين ليلة كنا فوق صفحتك بين الماء والسماء نجدف فى سكون وصمت ، وقد ضرب الله على آذان الطبيعة ، وختم على أفواه الخليقة ، فلا نحس حركة ولا نسمع ركزاً[٢] غير إيقاع المجاديف على أنغام الموج ؟

* * *

وإذا بصوت لا عهد للآذان بمثله ينبعث من ضفتك الجميلة ، فشق حجاب السكون ، وأطلق لسان الصدى . وهناك أنصت الموج ، وأصغى الهواء ، وأخذ هذا الصوت الحبيب يُساقط هذه الكلمات :

* * *

---

(١) الأواذى : جمع آذى وهو موج البحر .
(٢) الركز : الصوت .

« أيتها الأرض قفى دورانك ! وأنت أيتها الساعات قفى جريانك ! ودعينا نتمتع بعاجل لذاتنا ، وننعم بأجمل أيام شبابنا .

* * *

« إن كثيراً من صرعى الحياة وفرائس البؤس يتضرعون إليك أن تسرعى بهم ، لتخفف من كربهم ، فاستجيبى إليهم ، وكرّى مسرعة عليهم ، وخذى من عمرهم الذاهب ، ألام عذابهم الواصب ، واتركى السعداء والناعمين غارّين فى غفلات العيش وظلال الأمن !

* * *

« على أننى وا ويلتاه كلما لججت فى الطلب ، لج الزمان فى الهرب ، فأنا أتمنى عليه المنى فلا تُحقَّق ، وأستزيده البرهة اليسيرة فلا أوفَّق ، فسألت هذه الليلة أن تكون أطول وأمهل ، ولكن السؤْل خاب وبازىَ الصبح قد افترس غراب الليل !

* * *

« فلنتساق إذن كئوس الهوى دهاقاً !
ولنقض مآربنا من هذه الحياة عجالا ، فليس
لسفينة الإنسان مرفأ ، ولا لخضم الزمان ساحل :
إن الزمان ليتدفق ، وإنا مع تياره نمر ونمضى !

* * *

« أيها الزمن الحاقد الحاسد ! أكذلك
قضيت أن تمضى لحظات الأنس وسكرات
الحب سراعاً كما تمضى أيام الشقاء والبؤس ! !

* * *

« ويلك ! أما نستطيع على الأقل أن
نتبين آثارها ونلمح أنوارها ؟ وكيف ؟
أتراها قد ذهبت إلى غير رجعة ، وماتت إلى
غير بعث ؟ واويلتـــاه ! هل انقضى كل
شيء ؟ وهل الزمن الذى منحها وأعطاها ؟
والذى طمسها وعفاها ، لا يردها ثانية علينا ؟

* * *

« حدثنى أيها الأبد ! أيها العدم ! أيها
الماضى ! أيها الغور العميق ! ماذا تصنع
بهذه الأيام التى تطويها فى أحشائك ؟ أما
ترجع إلينا ما سلبتنا من سكرات نبيلة ،
ومسرات جميلة ؟

* * *

« أيتها البحيرة الصاخبة ، أيتها الصخور الصامتة ! أيتها الغيران الموحشة ! أيتها الغابات المظلمة ! أنتن اللاتى يُبقى عليهن الدهر ، فيُجدِّدهن بعد البلى ، ويخصبهن بعد المَحْل ! فاحتفظن من هذه الليلة السعيدة على الأقل بذكراها ، واندمجن على شذا أرجها وطيب رياها !

* * *

« لتبق ذكراها أيتها البحيرة فى هدوئك الشامل ، وعواصفك الهوج ، وهضباتك الضحوك ! لتبق فى هذا الصنوبر الذاهب فى السماء ، وفى وعر الصخور المعلقة فوق الماء ! لتبق فى النسيم العابث بوجهك ، وفى الهدير المردد بين ضفافك ، وفى الكوكب الفضى يضىء سطحك بأنواره الرخية الزهية !

* * *

« وليقل الهواء الذى يصفر ، والقصب الذى يزفر ، والنسيم المعطر الذى يضوع ! ليقل كل مانرى وما نسمع وما نتنسم :

« لقد كانا عاشقين ! ! »